دراسة مقارنة بين قصيدتين متشابهتين للزبيري والجواهري

الدكتور عبد العزيز المقالح

- ١ -

في فترة من فترات تاريخنا الحديث كانت حركاتُ القمع في بعض الأقطار العربية ـ ومنها بلادنا ـ تشتد وتتشابه، وكان إرهاب السلطة في هذه الأقطار يتوسع ويتشابه، وكانت حركات النضال نتيجة لذلك تنمو متشابهة. وفي غياب حركة النضال المنظمة ـ كما كان الأمر في بلادنا ـ كان التعبير عن الاضطهاد والتحريض على النضال يحمل قدرا من هذا التشابه يدل عليه الآن بعض القصائد وبعض الأعمال الروائية والقصصية التي يصل التشابه في بعضها إلى حد التطابق. ومن الممكن أن تنشأ دراسة مقارنة بل سلسلة من الدراسات المقارنة والخاصة بهذه الظاهرة في مجال الأدب العربي الحديث.

والتشابه من منظور هذه الرؤية النقدية لا يقوم على المفاضلة او يقتصر على القالب او الشكل دون التفاصيل والمضامين، ولا يقف عند هذه التفاصيل والمضامين مغفلا القوالب والأشكال، انها رؤية نقدية تطمح الى تناول العمل الأدبي المتشابه من نواحيه المختلفة، من اساليب المعالجة الى الأفكار الأساسية بقصد إظهار التماثل في الواقع الذي صدرت عنه الأعمال الأدبية، وبغرض رصد ابعاد التشابه والتطابق في الأدب العربي الواحد في مختلف الأقطار العربية.

وبين يدي الآن قصيدتان متشابهتان. الأولى للشاعر محمد محمود الزبيري والقصيدة الأخرى للشاعر محمد مهدي الجواهري. واجد نفسي ـ بادىء ذي بدء ـ مطالباً بوضع مقدمة تفسيرية للدوافع التي جعلتني اتحدث عن هاتين القصيدتين الآن، ودفعت بي إلى ان اجمع في هذه الدراسة المقارنة القصيرة بين شاعرين كبيرين لهما تاريخهما النضالي ووزنهما الجليل في مجال الحركة الشعرية العربية المعاصرة. والأمر في ظني لا يستدعي سوى سطور قليلة اشرح فيها السبب الذي اوقفني امام هاتين القصيدتين وجها لوجه، فقد كنت منذ أيام اقرأ في رواية «البحث عن وليد مسعود» للكاتب الفلسطيني جبرا ابراهيم جبرا، واستوقفني في أثناء قراءتي للرواية بيتان من الشعر هما:

قالوا عني بغيٌ والتحررُ سبةٌ
والهمسُ جرمٌ والكلامُ حرامُ
ومدافعٌ عمايَدين مخربٌ
ومطالبٌ بحقوقهِ هدَّامُ

وبالرغم من ان القصائد التي قيلت في هذا الوزن، ومن هذا البحر وعلى نفس القافية منذ العصر الجاهلي حتى اليوم لا تكاد تحصر إلا ان قصيدة منها لم تخطر على بالي ووجدتني اتذكر على الفور الزبيري وقصيدته الشهيرة التي مطلعها:

ناشدتك الاحساس يا أقلام
اتزلزل الدنيا ونحن نيام

لقد أحسست وأنا أقرأ البيتين السابقين انني استمع الى صوت الزبيري وإلى حشرجة روحه اللاهبة، وكنت اقول لو لم يضع الكاتب اسم صاحبهما انني امام بيتين من قصيدة الزبيري السالفة الذكر قد انفرطا عن عقدها وضاعا في مجاهل الأيام حتى اهتدت اليهما هذه الرواية الفلسطينية التي تبحث عن الفلسطيني التايه بين المدن العربية وبين الصحراء والأعداء والأصدقاء على السواء.

وضعت الرواية جانباً ووجدت مبرراً لتأجيل «البحث عن وليد مسعود» في المضي بحثا عن البيتين اللذين سوف يقودانني دون شك إلى قصيدتين متشابهتين، ولكي اثبت اي الشاعرين كان الأسبق. بحثت عن ديوان الجواهري ووضعته الى جوار ديوان الزبيري، وبدأت في تقليب الصفحات بحثاً عن القصيدتين، واكتشفت في تلك الدقائق اهمية الترتيب الأبجدي للقصائد وبخاصة في الديوان الكامل او ما يسمى بالأعمال الكاملة. وحين عثرت على القصيدتين بدأت في عملية المقارنة التي لم تستغرق وقتا طويلا، ولا احتاجت إلى كبير عناء.

لقد وجدت بين القصيدتين علاقة حميمة، واحسست من القراءة الأولى ان إيجاد وجه شبه بينهما ليس صعباً ولا يحتاج ايضا إلى كبير عناء، وأن أي ملم بالشعر يدرك لأول قراءة العلاقة المعنوية والفنية القائمة بين القصيدتين، ولكن ما تجشمته من عناء قد ظهر بعد ذلك عندما حاولت البحث عن مصدر التشابه، وعندما بدأت في تصور دراسة نقدية تقوم على رصد ذلك التشابه، وقد كنت مقتنعاً منذ البداية ان مصدر التشابه لا يأتي من ان الشاعر الثاني قد قرأ قصيدة الشاعر الأول واتكأ على مضامينها وأسلوبها الفني بقدر ما يرجع إلى تشابه الواقع في بلديْ الشاعرين وإلى الثقافة المعاصرة المشتركة التي تتحكم في ذوق الشاعرين الكبيرين وتوجه مسارهما الفكري والفني. كان الحكم الملكي والاستعمار البريطاني يتحكمان في العراق حينئذ. وكان الحكم الملكي الإمامي والاستعمار البريطاني يومئذ يسيطران على اليمن شمالا وجنوبا. ولم يكن الاستقلال الصوري في بغداد بأكثر أو أقل من الاستقلال الصوري في صنعاء، فالهيمنة الاقتصادية والسياسية هناك تشبه الهيمنة الاقتصادية والسياسية هنا، وإن كان الواضح ان الهيمنة السياسية في اليمن تقتصر على شطره الجنوبي فحسب. كان ذلك عن تشابه الواقع العام أما عن التشابه الثقافي فقد كان التراث وعلى رأسه المتنبي يشكل المؤثر الطاغي على الشاعرين ثم الثقافة الشعرية المعاصرة المتمثلة في مدرسة شوقي الاحيائية، القائمة بالإضافة إلى صاحب المدرسة نفسه على حافظ والرصافي والزهاوي وإضرابهم، مع اقتراب من الأصوات الجديدة التي نشأت في ظل مدرسة الإحياء وتمثلت مفاهيم الكلاسيكية الجديدة.

يضاف إلى ذلك أن الشاعرين كليهما قد تخرجا من المسجد الإسلامي، فقد تخرج الزبيري من الجامع الكبير بصنعاء، وتخرج الجواهري من مساجد النجف، وعلى اختلاف ما بين الشاعرين في بعض مظاهر السلوك اليومي فإن واقع بلديهما المتشابه وثقافتهما المشتركة قد اوجدت بين شعرهما قدرا كبيرا من عناصر التشابه التي كشفت عنها هذه القراءة العابرة للقصيدتين.

- ٢ -

التشابه - لغة - لا يعني التطابق، وهو في نفس الوقت الذي يحمل معنى التماثل والتقارب يحمل كذلك معنى المغايرة، ولو قد كان التشابه يعني التطابق لكان أحد الشاعرين المتشابهين منتحلا او ناسخا، وما أكثر التشابه في الفنون والآداب وهو يأخذ أشكالا مختلفة قد يكون تشابها في الفكرة او الموضوع وقد يكون في الصياغة أو الأسلوب واحيانا قد يكون في الموضوع والصياغة معا، ومع ذلك يبقى تشابها وليس تطابقا، والقصيدتان موضوع هذا الحديث تتشابهان كثيرا، تتشابهان في الموضوع وفي الأسلوب وتلتقيان في بعض المعاني والصور وحتى في اللغة، أقصد المفردات، ويعود جانب من هذا التشابه إلى البنية الشعرية، وبعبارة أكثر وضوحا إلى الشكل الذي اختاره كل من الشاعرين للتعبير به ومن خلاله، واستخدامه جهاز إيصال. وكلاهما، الزبيري والجواهري، شاعر كلاسيكي جديد، والقصيدة الكلاسيكية الجديدة - كما نعلم جميعا - هي الوريث الشعري لأساليب الشعر الكلاسيكي واشكاله الفنية التي تحولت الى نظام، وصار هذا النظام - على حد تعبير ادونيس - هو الذي يكتب القصيدة لا الشاعر، ولذلك فانه مهما حاول الكلاسيكيون الجدد التجديد في مجال المجازية والتخييل فإن النظام الكلاسيكي الصارم يفرض نفسه، ويكاد يرفض كل ابتكار يحاول المساس بالبنية الخارجية.

وفي القصيدة الكلاسيكية تكون القافية - رغم انف الشاعر - سيدة البيت، والحجر المغناطيسي الذي يشد اليه ما قبلها من

كلمات، وفي مثل حال هاتين القصيدتين المتشابهتين فإن مفردة «كالأصنام» حين تغدو قافية لا بد ان يسبقها الحديث عن العبادة او التقديس المغلوط أو ما شابه ذلك، ومن هنا يحدث ما يسمى بالاتكاء او الاحتذاء واحيانا التشابه، وهذا الدور السلبي للقافية مضافا اليه دور الوزن الموحد، وتكرار هذه القوافي والأوزان في قصائد متشابهة هو الذي اوحى الى شاعرنا القديم بقوله المشهور:

ما ترانا نقول الا معاراً
او معاداً من قولنا مكرورا

وفي هذا تلميح مبكر جدا لما ادركه في أواخر النصف الأول من هذا القرن ناقد وشاعر جهير الصوت هو (ت . س . اليوت) الذي يرى أن التأثر والتقليد ميزة أزلية لا يستطيع ان ينجو منها حتى كبار الشعراء وذلك حين يقول «ان هناك أربع طبقات من الشعراء، شاعر فج يحاكي من سبقوه، وشاعر ناضج يسرقهم، وشاعر سيء يشوههم، وشاعر حق وهو ذلك الذي يُجَمِّل ما يأخذه ويجعله شيئا جديرا بما يضيفه اليه من قيم وفهم جديد للحياة، ويضيف اليوت في موطن آخر أن كل التراث الانساني الشعري لازم للشاعر ومباح له، فالشاعر الحق يحس بامرين:

اولهما: ان جيله مستكن في جلده وعظمه.

وثانيهما: ان آداب الانسان منذ هوميروس حتى العصر الحديث يؤلفان في نفسه نفسا متصلا وبالأحرى فان الشاعر الحديث من يعيش في الزمان واللازمان معا».

(من مقال للشاعر صلاح عبد الصبور).

والمفارقة العجيبة اللافتة للنظر في هذه الملاحظات، أن اليوت قد اعطى الشاعر المقلد المحاكي صفة الفج ومنح الشاعر اللص صفة الناضج وقد وضعه بين الفج والسيء، لأنه يرفض المحاكاة ويرفض تشويه قصائد الآخرين فهو يسرقها برمتها وفي هذه الحالة يكون أفضل الثلاثة وأجدرهم بصفة النضج . . أما عن إشارته إلى أن كل التراث الانساني مباح للشاعر، وأن الشاعر يعيش في الزمان واللازمان فهي تفسر سطوه الشجاع على أعمال ادبية من الشرق والغرب ومن كل اللغات وحشرها في قصائده، حتى تتسع اقطار تجربته الشعرية وتشتمل ـ ان استطاعت ـ كافة الأزمنة والأمكنة. والجدير بالملاحظة ـ هنا ـ أن الشاعر الجديد، شاعر التفعيلة الجيد، قد بذل جهدا خارقا لكي يتخلص من ملاحقة القافية ومن الضغط الذي تبذله لصيانة سيطرتها ولعل هذا من شأنه ان يدعم وجهة النظر التي سادت اتجاه شعراء السبعينات الذين يطالبون بإلغاء القافية من حظيرة الشعر الجديد.

ـ ٣ ـ

تحدثت للآن كثيرا عن القصيدتين وعن ثقافة الشاعرين، وعن معنى التشابه في العمل الأدبي، لكنني لم اتحدث عن أي الشاعرين كان الأسبق في كتابة القصيدة ونشرها، وقد لا يكون لمعنى السبق هنا أية اهمية، إلا أن الإشارة إلى تاريخ كتابة القصيدتين تزيد من أمانة المقارنة. وعندما نرجع إلى الديوانين نقرأ ان الزبيري قد كتب قصيدته في عام ١٩٤٥، وكان يومئذ في عدن عاصمة الشطر الجنوبي من الوطن بعد ان فر اليها خوفا من بطش الإمام، وأملا في تنظيم صفوف المعراضة الوطنية. وقد نشر القصيدة في ذلك الحين، وتوزعت نسخ منها سرا وعلنا في صفوف الأحرار من المثقفين والضباط والمستنيرين من ابناء الأسر الحاكمة. وكانت هذه القصيدة اقوى في فضح نظام الإمام من كل الكتابات التي سبقتها أو جاءت بعدها.

ويحدثنا ديوان الجواهري ان قصيدته قد كتبت عام ٤٨ على أثر مظاهرة شعبية سقط فيها شقيقه «جعفر» شهيداً برصاص المستعمرين وعملاء القصر الملكي، وهي واحدة من قصيدتين بكى فيهما الشاعر أخاه الشهيد والقصيدة الأكثر شهرة والأكثر انتشارا هي تلك التي مطلعها:

أتعهلم ام انت لا تعلم
بأن جراح الضحايا فم

والتي منها:

أتعلم ان جراح الشهيد
تظل عن الثار تستفهم
أتعلم ان جراح الشهيد
من الجوع تهضم ما تلهم
تمص دما ثم تبغي دما
وتبقى تلح وتستطعم
فقل للمقيم على ذله
هجينا يسخر او يلجم
تقحم لعنت ازيز الرصاص
وجرب من الحظ ما يقسم
وخضها كما خاضها الأسبقون
وثن بما افتتح الاقدم
فاما إلى حيث تبدو الحياة
لعينيك مركمة تغنم
وأما إلى جدث لم يكن
ليفضله بيتك المظلم

وحين نشر الجواهري قصيدته موضوع المقارنة قدم لها بسطور منها: (نظمت في شتاء ١٩٤٨ بمناسبة «الذكرى الأربعينية» لمصرع اخيه الشهيد «جعفر الجواهري» الذي جرح في معركة الجسر الشهيرة يوم ٢٧ كانون الثاني من العام نفسه، فيمن قتل معه وجرح من الشهداء احتجاجا منهم على معاهدة «بورت سموث» وتوفي متأثرا بجراحه في يوم ٤ شباط) ص ١٧٢ المجلد الأول.

ثلاثة أعوام إذن تفصل بين القصيدتين، وكان الزبيري هو الأسبق، ومع ذلك لا استطيع أن أجزم بل لا أريد أن أشير إلى أن الجواهري قد يكون قرأ قصيدة الزبيري او تأثر بها ، ولو كان العكس هو الذي حدث أي أن قصيدة الجواهري قد كانت الأسبق لما ترددنا عن القول في أن الزبيري قد قرأ قصيدة الجواهري وانفعل بها، حتى ولو لم يكن الزبيري قد سمع بها، وهذا يجرنا إلى الحديث عن محنة الشعراء الكبار في الأقطار الصغيرة الشأن، حيث لا يذكر لهم أي قدر من التفوق، وإذا ما وقعوا في خطأ فالويل لهم، ولأنهم حاولوا الخروج عن واقع الزمن الجامد والايقاع المتخلف. ولا أريد بهذا القول أن اثبت تأثر الجواهري بقصيدة الزبيري بقدر ما أريد ان أثبت حقيقة يعاني منها الشعراء في الأقطار النائية او البعيدة عن مراكز الضوء والانتشار!!

ذلك عن الأسبقية فماذا عن الفكرة الأساسية أو الموضوع المشترك بين القصيدتين؟ الوطن أو الدفاع عن الشعب والتعبير عن نزوعه النضالي نحو الحرية واستكمال السيادة والكرامة هو الموضوع الرئيسي والفكرة المشتركة بين الشاعرين وفي القصيدتين، وهي بالرغم من ذلك ليست فكرة تطابقية تجعل من القصيدتين عملا واحدا او تجعل احدهما منسوخا عن الآخر، وإنما هي فكرة عامة أسهم الأسلوب او النمط الفني المشترك في تعزيز ملامح التشابه، وكان للقافية التي يراها الجواهري محور القصيدة وجوهر العمل الشعري كان لها الدور الحاسم في تأكيد التشابه بين القصيدتين.

- ٤ -

مرة أخرى، وحتى لا يتهمني احد بأنني ارتبُ هذه التشابهات بصورة قسرية أو أنني أقصد من ورائها التقليل من احد الشاعرين لحساب الآخر، مرة أخرى اقول ان هذا التشابه قد جاء بمحض الصدفة، وأن التشابه بين كثير من القصائد العربية القديم منها والحديث سواء كان تشابهاً من حيث اللغة او من حيث المضامين لا ينفي ان لكل قصيدة جيدة شخصيتها المستقلة، ولكل شاعر خصوصيته المنظورة.

وفي قصيدتي الزبيري والجواهري مقاطع متشابهة في مضامينها، وأبيات متفرقة متشابه في المضمون والأسلوب. وحين ييأس الزبيري مثلا من بشاعة الواقع في اليمن ومخاوفه يرجع إلى الماضي يستدعي أمجاده مستنجداً بها من صور القمع والوحشية:

كانوا الأباة وكانت الدنيا لهم
والملك والرايات والاعلام
نزلوا بيثرب والعراق فشيدوا
ملكا كبير الشأن ليس يرام
وهم الأولى اقتحموا على اسبانيا
اسوارها فتحكموا وأقاموا
وهم بمعترك الحروب صوارم
وهمو ولبنيان العروش دعام
كانوا بأعصاب العروبة ثورة
تمحى الملوك بما وترمى الهام

ولنتأمل بعد ذلك هذه الأبيات للجواهري، انه الآخر يلجأ إلى الماضي ويجد فيه النموذج الجدير بالاقتداء، واستدعاء بعض شخوصه:

ولى الزمان وبدلت نظم به
ولكل عصر دولة ونظام
ومضى الحداة بحاتم وبرهطه
وتبدلت بمكارم احكام
فهمو وقد حلبوا الصرح أماجد
وهمو وقد عقروا الجزور كرام
وهمو لأن الضيف ينزل ساحهم
للفقر في ساحاتهم المام

ولأن الحديث عن الماضي بردود افعال الحاضر الاحباطية يستدعي بالضرورة ذكر الاحساب والأنساب والتمجد بالفضائل السلبية في محاولة للانسلاخ من الحاضر واثقاله، ولأن الحكام هنا وهناك ينتمون الى سلالة لا ينكر عربي شرف نسبها ونبالة عنصرها فإن الشاعر يتكىء على ذلك ليقارن بين سماحة الجدود ولؤم الاحفاد، يقول الزبيري:

ما كان ضرهم وهم من هاشم
لو انهم مثل الجدود كرام
لكنها الاخلاق ارزاق بها
يجري القضا وتقدر الاقسام

وللنظر كذلك إلى الجواهري يعبر عن نفس النزعة وينطلق في نفس الاتجاه، ان انغماس الفروع في عفن الظلم ودنس الطغيان وفي الرضوخ لرغبات المستعمر الأجنبي لا يسيء اليها فحسب لكنه يكاد يشوه طهارة الأصول الكريمة ونقاء الينابيع الأصيلة:

لجأوا إلى «الانساب» لوجلى لهم
«نسب» ولو صدقت لهم ارحام
وتنابزوا بالجاهلية شجها
من قبل نور الفكر، والاسلام
وكأن من لم يحو تلك وهذه
وإن استقام بهيمة وسوام
نُكرٌ لو استعلى لما استعلت به
بالعروة الوثقى لها استعصام
ولما تمايزت النفوس بخيرها
وبشرها ولما استتب نظام
لزكا «ابو لهب» وكان مرجما
ودنا «صهيب» وإنه لإمام

ويصور الزبيري ترف الطبقة الحاكمة وما اختصت به نفسها من حقوق ومغانم فيقول:

اكلوا لباب الأرض واختصوا بها
وذوو الخصاصة واقفون صيام
وكأنهم هم أوجدوا الدنيا وفي
ايديهم تتحرك الأجرام
هب انهم خلقوا العباد فهل لمن
خلقوه عطف عندهم وذمام؟

ويقول الجواهري:

خلص النعيم لهم فهم في رقة
وغضارة، بيض الوجوه وسام
وصفا لهم فلك الصبا فتلألأوا
فيه كما تتلألأ الأجرام
يتدللون على الزمان كما اشتهت
شهواتها قُبُ البطون وحام
ومداس ارجلهم ونهب نعالهم
شعب مهيض الجانحين مضام

ومما هو جاهز الدلالة في التشابه بين القصيدتين حديث كل من الشاعرين عن المتذبذبين والمتلونين وعبيد الطغيان، وعن الحساب العسير الذي ينتظر هؤلاء وهؤلاء، يقول الزبير:

ومذبذبين تلوناً وتردداً
لعنتهم الحسنات والآثام
قلنا ارفعوا الأسواط عن اجسادكم
قالوا لنا: لوم الإمام أثام
سيحاسبون فقد دنا لحسابهم
يوم يسوء الخائنين ظلام
وسيندم المتزلفون ندامة الو
ثنى يوم تحطم الأصنام

وهذا بعض ما يقول الجواهري:

سيحاسبون فان عرتهم سكتة
من خيفة فستنطق الآثام
سينكس المتذبذبون رقابهم
حتى كأن رؤوسهم أقدام

ومن الأبيات المتشابهة في القصيدتين:

الزبيري:

ما لليمانين في لحظاتهم
بؤس وفي كلماتهم آلام

الجواهري:

ولقد ترقرق في العيون تساؤل
وعلى الشفاه تحير استفهام

الزبيري:

والناس بين مكبل في رجله
قيد، وفي فمه البليغ لجام

الجواهري:

وعلى ضمير المخلصين غشاوة
وعلى فم المتحررين لجام

الزبيري:

جهل وامراض، وظلم فادح
ومخافة ومجاعة وإمام

الجواهري:

ومشى بأصلاب الجموع يبزها
الجهل والادقاع والأسقام

الزبيري:

والجيش يحتل البلاد وماله
في غير أكواخ الضعيف مقام

الجواهري:

وانصاع يغزو اهله وديارَه
جيش من المتعطلين لهام

الزبيري:

والاجتماع جريمة ازلية
ولاعلم اثم والكلام حرام

الجواهري:

فالوعي بغي والتحرر سبة
والهمس جرم والكلام حرام

ويتحدث الزبيري في مقطع طويل عن المرتزقة من حملة الأقلام، والمدافعين زورا وتضليلا عن نظام الإمام فيقول عنهم:

باعوا الضمائر للمهانة مثلما
تُبتَاع للحمل الثقيل سوام

ولأنهم مأجورون فهم يتطاولون لأمور ليس لهم بها من علم:

يتطاولون إلى شئون مالهم
علم بمعناها ولا إلمام

وعن نفس المأساة يتحدث الجواهري:

والصادعون بما يرى مستعمر
فهم متى يأمرهم خدام

وهم خدام أغبياء يقولون ما لا يدرون:

لكن بمختلطين في نياتهم
شبها فلا وضح ولا إبهام

دار الآداب تقدم

مؤلفات الدكتور سهيل ادريس

في طبعة جديدة

روايات

- الحي اللاتيني الطبعة الثامنة
- الخندق الغميق الطبعة الرابعة
- أصابعنا التي تحترق الطبعة السادسة

قصص

- أقاصيص أولى الطبعة الثالثة
- أقاصيص ثانية الطبعة الثالثة

آفاق «الآداب»

- في معترك القومية والحرية الطبعة الثانية
- مواقف وقضايا أدبية الطبعة الثانية

مترجمات

- الطاعون - لألبير كامو
- الثلج يشتعل - لريجيس دوبريه
- من أكون في اعتقادكم - لروجيه غارودي